الوثيقة النّبويَّة الكُبرى

موقعُ الصِّدِّيقة الكبرى فاطمة الزّهراء عليها السلام، في عقيدة المسلمين -وبإجماعٍ مُنقطع النّظير- موقعٌ محمّديٌّ بامتياز.

إنّه موقع «البضعة» و«الشَّجَنَة» و«القلب» و«الرّوح» يفديها بنفسه مَن قال: «**كنتُ نبيّاً وآدمُ بين الماء والطِّين**»، الشاهدُ على النبيِّين، وسيِّدُ الأوّلين والآخرين. ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ النجم:٣-٤.

هذا الإجماع النّوعي هو الذي جعل العلماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم عبر القرون لا يَفصلون -في ماعدا النبوّة الأعظم، وسيادة الخلق أجمعين- بين رسول الله وبين الزّهراء صلّى الله عليهما وآلهما.

أورد الإمام محمّد بن يوسف **الصّالحي الشامي** (ت: ٩٢٤ هجريّة) -تلميذ السّيوطي- في موسوعته (**سُبُل الهدى والرَّشاد**): «وسُئِل أبو داود، أيّهما أفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: خديجة أَقْرَأَها النّبيُّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم السّلامَ من ربّها، وعائشة أقرأَها السّلام من جبريل، فالأُولى أفضل، فقِيل له: مَن الأفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **فاطمة بضعةٌ منّي**، ولا أعدلُ ببضعة رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أحداً».

• أهميّة الخطبة الفاطميَّة

ممّن روى الخطبة التي أوردَتْها الصِّدِّيقةُ الزّهراء عليها السلام، «أبو بكر الجوهري» في كتابه (السَّقيفَة وفَدَك) الذي لم يصلنا إلّا من خلال ما نقله منه «ابنُ أبي الحديد المعتزلي» في (شرح نهج البلاغة).

تمسُّ حاجةُ الأمّة بأجيالها إلى هذه الوثيقة الإلهيّة النبويّة، العقائديّة – السِّياسيَّة الفريدة.

ينبغي الوقوف عندها طويلاً للمؤرّخ الذي يريد أن يدوّن بصدق، الوقائعَ التي جَرَتْ بعد المصطفى الحبيب ﷺ.

وينبغي الوقوف عندها طويلاً للباحث في المجال العقائدي، الذي يريدُ أن يهتديَ إلى الإسلام المحمّدي الأصيل.

وينبغي كذلك الوقوف عندها طويلاً لِمن اختار سلامةَ العقيدة في ضوئها، وهو يريدُ أن يرفد مخزونَه الشعوري والوجداني بالدقائق الولائيّة التي تزخرُ بها هذه الخطبة المباركة.

• أجواءُ الخطبة

أمّا الزمان الذي أُوردت فيه هذه الخطبة فهو بعد وفاة رسول الله ﷺ بعشرة أيام. أي في مفتَتح «الإنقلاب على الأعقاب»، الذي تحدَّث عنه القرآنُ الكريم. **قال تعالى:**

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٤.

وأمّا المكان فهو مسجدُ رسول الله ﷺ المركز الوحيد لإدارة الدولة الإسلاميّة آنذاك.

والحضور: جمعٌ حاشدٌ من المهاجرين والأنصار.

والمضمون: تأصيلٌ عقائديٌّ فقهيٌّ، يتصاغرُ أمام شرحِه كبارُ العلماء، وتحديد سلامة إسلام الأُمّة بأجيالها، عبر تحديد النّهج المُوصِل إلى رسول الله ﷺ لِيتحقّقَ التوحيد الحقيقي الذي لم يُلبَس بظلمٍ، ولم يُشَب بشِرك.

• الخطبة الفاطميّة، نبويَّة

يُجمع المسلمون على أنّ رسول الله ﷺ كان يريد أن يكتب للأُمّة كتاباً لن يضلّوا بعده أبداً، ولم يُكتَب هذا الكتاب. إذا ضمَمنا هذا الإجماع إلى الإجماع على موقع الصِّدِّيقة الكبرى من النبيّ ﷺ، سنجدُ بكلّ وضوح أنّ الزّهراء عليها السلام قالت في هذه الخطبة ما كان يريدُ سيّدُ النبيّين أن يكتبَه.

على هذا الأساس العلمي المَتين يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يتدبَّر في كلام الزّهراء عليها صلوات الرّحمن، متوقّفاً بتعقُّلٍ أمام عدم التنافي بين وجوب حفظ وحدةِ الأمّة، وبين التّثبُّت من «حُسنِ إسلام الأُمّة»، بل لا يُمكن حفظُ الوحدة الإسلاميّة دون معرفة حقيقة الإسلام الذي يجب على أُمّتِه أن تكون واحدة.

ليس حديث الزّهراء عليها السلام إلّا بحُكم الحديث النبويّ الشّريف، ومن هنا حرصت مجلّة «شعائر» -وفي هذا المقطع الحسّاس من عمر الأمة- على أن تقدّم إلى الأُمّة هذه الخطبة المباركة بمناسبة ذكرى وفاة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزّهراء عليها السلام.

«شعائر»

ربيع الآخر، ١٤٣٣

خُطبَةُ الصِّدِّيقَةِ الكُبرَى عَلَيهَا السَّلَامُ

فِي المَسجِدِ النَّبَوِيِّ

بَعدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ بِعَشرَةِ أَيَّامٍ

عَن زَيدِ بنِ عَلِيٍّ عَن آبَائِهِ عَلَيهِمُ السَّلَامُ قَالُوا: لَمَّا بَلَغَ فَاطِمَةَ عَلَيهَا السَّلَامُ إِجمَاعُ أَبِي بَكرٍ عَلَى مَنعِهَا فَدَكَ، وَانصَرَفَ عَامِلُهَا مِنهَا لَاثَت خِمَارَهَا، ثُمَّ أَقبَلَت فِي لُمَّةٍ مِن حَفَدَتِهَا وَنِسَاءِ قَومِهَا تَطَأُ ذُيُولَهَا مَا تَخرِمُ مِشيَتُهَا مِشيَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ حَتَّى دَخَلَت عَلَى أَبِي بَكرٍ، وَقَد حَفَلَ حَولَهُ المُهَاجِرُونَ وَالأَنصَارُ، فَنِيطَت دُونَهَا مُلَاءَةٌ، ثُمَّ أَنَّت أَنَّةً أَجهَشَ لَهَا القَومُ بِالبُكَاءِ ثُمَّ أَمهَلَت حَتَّى هَدَأَت فَورَتُهُم وَسَكَنَت رَوعَتُهُم وَافتَتَحَت الكَلَامَ، فَقَالَت:

أَبتَدِئُ بِالحَمدِ لِمَن هُوَ أَولَى بِالحَمدِ وَالمَجدِ وَالطَّوَلِ.

الحَمدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنعَمَ، وَلَهُ الشُّكرُ عَلَى مَا أَلهَمَ، وَالثَّنَاءُ عَلَى مَا قَدَّمَ مِن عُمُومِ نِعَمٍ ابتَدَأَهَا وَسُبُوغِ آلَاءٍ أَسدَاهَا وَإِحسَانٍ مِنٍّ وَالَاهَا، جَمَّ عَنِ الإِحصَاءِ عَدَدُهَا، وَنَأَى عَنِ المُجَازَاةِ أَمَدُهَا وَتَفَاوَتَ عَنِ الإِدرَاكِ أَبَدُهَا اسَتَدعَى الشُّكرَ بِإِفضَالِهَا، وَاستَحمَدَ إِلَى الخَلَائِقِ بِإِجزَالِهَا، وَأَمَرَ بِالنَّدبِ إِلَى أَمثَالِهَا.

وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً جَعَلَ الإِخلَاصَ تَأوِيلَهَا، وَضَمَّنَ القُلُوبَ مَوصُولَهَا وَأَبَانَ فِي الفِكرِ مَعقُولَهَا، المُمتَنِعُ مِنَ الأَبصَارِ

رؤيتُه ومن الأنسِ صِفتُه، ومن الأوهام الإحاطةَ به، ابتدعَ الأشياءَ لا مِنْ شيءٍ كانَ قبلَها، وأنشأها بلا احتذاءِ أمثلةٍ (امتثلَها)، ووضعَها لغيرِ فائدةٍ زادتْه بلْ إظهارًا لقُدرتِه وتعبُّدًا لبريَّتِه، وإعزازًا لأهلِ دعوتِه، ثمَّ جعلَ الثوابَ على طاعتِه، ووضعَ العقابَ على معصيتِه ذيادةً لعبادِه عن نقمتِه وحياشةً لهم إلى جنَّتِه.

وأشهدُ أنَّ أبي محمدًا عبدُه ورسولُه، اختارَه قبلَ أنْ يجتبلَه، واصطفاهُ قبلَ أنْ يبتعثَه، وسمَّاه قبلَ أنْ يستنجبَه، إذ الخلائقُ في الغيبِ مكنونة، وبسدِّ الأوهامِ مصونة، وبنهايةِ العدمِ مقرونة، علمًا من اللهِ في غامضِ الأمور، وإحاطةً من وراءِ حادثةِ الدهور، ومعرفةً بمواقعِ المقدور. ابتعثَه اللهُ إتمامًا لعلمِه وعزيمةً على إمضاءِ حكمِه، فرأى الأممَ فرقًا في أديانِها عُكَّفًا على نيرانِها، عابدةً لأوثانِها منكرةً للهِ مع عرفانِها، فأنارَ اللهُ بمحمدٍ ظلمَها وفرَّجَ عن القلوبِ بهمِّها، وجلا عن الأبصارِ عمهَها، وعن الأنفسِ غممَها. ثمَّ قبضَه اللهُ إليه قبضَ رأفةٍ ورحمة، واختيارٍ ورغبةٍ لمحمدٍ عن تعبِ هذه الدار، موضوعًا عنه أعباءَ الأوزار، محفوفًا بالملائكةِ الأبرار، ورضوانِ

الرَّبِّ الغَفَّار، وَمُجاوِرَة المَلِكِ الجَبَّار، أَمِينِه عَلَى الوَحيِ، وَصَفِيِّه وَرَضِيِّه وخِيَرَتِهِ مِن خَلقِهِ وَنَجيِّهِ، فَعَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام وَرَحمة الله وَبَرَكاتُه.

ثم التفتَ إلى أهل المجلس فقالت لجميع المهاجرين والأنصار:

"وَأَنتُم عِبَادَ الله نصبُ أَمرِه وَنَهيِه، وَحَملَةُ دِينِهِ وَوَحيِهِ وَأُمَنَاء الله عَلَى أَنفُسِكُم، وَبُلَغَاؤُه إِلَى الأُمَم، زَعِيمٌ للهِ فِيكُم، وَعَهدٌ قَدَّمَه إِلَيكُم وَبَقِيَّةٌ اسْتَخلَفَهَا عَلَيكُم: كِتَاب الله بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ، وَآيٌ مُنكَشِفَةٌ سَرَائِرُه، وَبُرهَانٌ فِينَا مَجلِيَّةٌ ظَوَاهِرُهُ، مَدِيمٌ للبَرِيَّة اسْتِمَاعُه، وَقَائِدٌ إِلَى الرِّضوَان أَتبَاعَه، وَمُؤَدٍّ إِلَى النَّجَاة أَشيَاعَه، فِيهِ تِبيَان حُجَج الله المُنَوَّرَة، وَمَوَاعِظُه المُكَرَّرَة، وَعَزَائِمُه المُفَسَّرَة وَمَحَارِمُه المُحَذَّرَة، وَأَحكَامُه الكَافِيَة، وَبَيِّنَاتُه الجَالِيَة، وَفَضَائِلُه المَندُوبَة، وَرُخَصُه المَوهُوبَة، وَرَخمتُه المَرجُوَّة، وَشَرَائِعُه المَكتُوبَة، فَفَرَضَ الله عَلَيكُمُ الإِيمَانَ تَطهِيرًا لَكُم مِنَ الشِّركِ، وَالصَّلاَة تَنزِيهًا لَكُم عَنِ الكِبرِ، وَالزَّكَاة تَزيِيدًا فِي الرِّزقِ، وَالصِّيَام إِثبَاتًا لِلإِخلاَص، وَالحَجَّ تَشيِيدًا لِلدِّين، وَالحَقَّ تَسكِينًا لِلقُلُوب وَتَمكِينًا لِلدِّين، وَطَاعَتَنَا نِظَامًا لِلمِلَّة، وَإِمَامَتَنَا لَمًّا لِلفُرقَة، وَالجِهَادَ عِزًّا لِلإِسلاَم، وَالصَّبرَ مَعُونَةً عَلَى الِاستِيجَاب، وَالأَمرَ بِالمَعرُوف مَصلَحَةً لِلعَامَة، وَالنَّهيَ عَنِ المُنكَر تَنزِيهًا لِلدِّين، وَالبِرَّ بِالوَالِدَين وِقَايَةً مِنَ السَّخَط، وَصِلَةَ الأَرحَام مَنمَاةً لِلعَدَد وَزِيَادَةً فِي العُمر، وَالقِصَاصَ حَقنًا لِلدِّمَاء، وَالوَفَاءَ بِالنُّذُور تَعَرُّضًا لِلمَغفِرَة، وَوَفَاءَ المَكيَال وَالمِيزَان تَغيِيرًا لِلبَخسِ وَالتَّطفِيف، وَاجتِنَابَ قَذف المُحصَنَة حِجَابًا عَنِ اللَّعنَة، وَالتَّنَاهِيَ عَنِ شُربِ الخُمُور تَنزِيهًا

عَنِ الرِّجسِ، وَمُجَانبةَ السَّرقةِ إيجابًا لِلعِفَّةِ، وَالتَّنَزُّهِ عَنْ أكلِ مَالِ اليتيمِ وَالاستئثارِ بِإجارةٍ مِنَ الظُّلمِ، وَالنَّهيِ عَنِ الزِّنَا تَحَصُّنًا مِنَ المقتِ، وَالعدلِ فِي الأحكامِ إيناسًا لِلرَّعيةِ، وَتركِ الجَورِ فِي الحُكمِ إثباتًا لِلوَعيدِ، وَالنَّهيِ عَنِ الشركِ إخلاصًا لَهُ بِالربُوبيَّةِ فـ "اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" وَلَا تَوَلَّوا مُدبِرِينَ، وَأطيعُوهُ فِيمَا أمرَكُم وَنَهاكُم فـ "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" فَاحمَدُوا اللهَ الذي بِعَظَمتِهِ وَنورِهِ ابتغَى مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرضِ إِلَيهِ الوَسِيلَةَ، فَنَحنُ وَسِيلَتُهُ فِي خَلقِهِ، وَنَحنُ آلُ رَسُولِهِ، وَنَحنُ حُجَّةُ غَيبِهِ، وَوَرَثَةُ أنبيَائِهِ."

ثُمَّ قَالَتْ: "أَنَا فَاطِمَةُ وَأَبِي مُحَمَّدٌ أقولُها عَودًا عَلَى بدءٍ، وَمَا أقولُ إِذْ أقولُ سَرَفًا وَلَا شَطَطًا، "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" إِنْ تَعزُوهُ تجدوهُ أبِي دُونَ نِسَائِكُمْ وَأخَا ابنِ عَمِّي دُونَ رِجَالِكُمْ، بَلِّغَ النَّذَارَةَ صَادِعًا بِالرِّسَالَةِ نَاكِبًا عَنْ سُنَنِ المشرِكِينَ، ضَارِبًا لِأَبْثَاجِهِمْ، آخِذًا بِأَكظَامِهِمْ دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، يَجُذُّ الأصنَامَ، وَيَنكُتُ الهَامَ، حَتَّى انهَزَمَ الجَمعُ، وَوَلَّوُا الدُّبُرَ، وَحَتَّى تَفَرَّى اللَّيلُ عَنْ صُبحِهِ وَأَسفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحضِهِ وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ وَهَدَأَتْ فَورَةُ الكُفرِ، وَخَرِسَتْ شَقَاشِقُ الشَّيطَانِ، وَفُهتُمْ بِكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، "وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، فَأَنقَذَكُمْ مِنْهَا" (..) تَعبُدُونَ الأصنَامَ، وَتَستَقسِمُونَ بِالأزلَامِ، مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهزَةَ الطَّامِعِ، وَقَبسَةَ العَجْلَانِ، وَمَوطِئَ الأقدَامِ، تَشرَبُونَ الرَّنِقَ، وَتَقتَاتُونَ القِدَّةَ أذِلَّةً خَاشِعِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَولِكُمْ فَأَنقَذَكُمْ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ اللُّتَيَّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ مَا مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجَالِ، وَذُؤْبَانِ العَرَبِ، "..كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ.." أَوْ نَجَمَ قَرْنُ الضَّلَالَةِ، أَوْ فَغَرَتْ فَاغِرَةُ المُشْرِكِينَ، قَذَفَ أَخَاهُ فِي لَهَوَاتِهَا، فَلَا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَهَا بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدُ لَهَبَهَا بِحَدِّهِ، مَكْدُودًا فِي ذَاتِ اللهِ، قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللهِ، سَيِّدًا فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَأَنْتُمْ فِي بَلْهْنِيَةٍ آمِنُونَ، وَادِعُونَ فَرِحُونَ تَتَوَكَّفُونَ الأَخْبَارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزَالِ عَلَى الأَعْقَابِ، حَتَّى أَقَامَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَمُودَ الدِّينِ، فَلَمَّا اخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ دَارَ أَنْبِيَائِهِ وَمَأْوَى أَصْفِيَائِهِ ظَهَرَتْ حَسِيكَةُ النِّفَاقِ، وَانْسَمَلَ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَأَخْلَقَ ثَوْبُهُ، وَنَحَلَ عَظْمُهُ، وَأَوْدَتْ رِمَّتُهُ، وَظَهَرَ نَابِغٌ، وَنَبَغَ خَامِلٌ، وَنَطَقَ كَاظِمٌ، وَهَدَرَ فَنِيقُ البَاطِلِ يَخْطِرُ فِي عَرَصَاتِكُمْ، وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِسِهِ، صَارِخًا بِكُمْ فَأَلْفَاكُمْ غِضَابًا، فَخَطَمْتُمْ غَيْرَ إِبِلِكُمْ، وَأَوْرَدْتُمُوهَا غَيْرَ شِرْبِكُمْ بِدَارًا - زَعَمْتُمْ خَوْفَ الفِتْنَةِ -.. "أَلَا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ.."

هَذَا وَالعَهْدُ قَرِيبٌ، وَالكَلْمُ رَحِيبٌ، وَالجُرْحُ لَمَّا يَنْدَمِلْ، فَهَيْهَاتَ مِنْكُمْ، وَأَيْنَ بِكُمْ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، زَوَاجِرُهُ لَائِحَةٌ، وَأَوَامِرُهُ لَامِحَةٌ، وَدَلَائِلُهُ وَاضِحَةٌ وَأَعْلَامُهُ بَيِّنَةٌ، وَقَدْ خَالَفْتُمُوهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا الأَرِيثَ أَنْ تَسْكَنَ نَفْرَتُهَا، وَيَسْلَسَ قِيَادُهَا، تُمْرُونَ حَسْوًا بِارْتِغَاءٍ، (..) وَتَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ حَزِّ المُدَى، وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا إِرْثَ لَنَا، أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ".

إيهًا معشرَ المسلمين، أأُبتَزُّ إرثَ أبي، يا ابنَ أبي قحافة ؟! أفي كتاب الله عزَّ وجلَّ أن ترثَ أباك ولا أرثَ أبي ؟! لقد جئتَ شيئًا فريًّا، جرأةً منكم على قطيعة الرحم، ونكث العهد فعلى عمدٍ ما تركتم كتابَ الله بين أظهركم ونبذتموه، إذ يقول الله عزَّ وجلَّ "وورث سليمانُ داوود .." ومع ما قصَّ من خبر يحيى وزكريا إذ يقول : ".. فهب لي من لدنك وليًّا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيًّا" وقال عزَّ وجلَّ : "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين .." وقال تعالى : "إن ترك خيرًا الوصية للوالدين والأقربين .." فزعمتم أن لا حظَّ لي ولا أرثُ من أبي ! أفخصَّكم الله بآيةٍ أخرجَ أبي منها ؟! أم تقولون أهل ملَّتين لا يتوارثون ؟! أولستُ وأبي من أهل ملَّةٍ واحدة ؟! أم أنتم بخصوص القرآن وعمومه أعلمُ من النبيِّ ؟! دونكها مرحولةً مزمومةً تلقاكَ يومَ حشرك، فنعمَ الحكمُ اللهُ ونعمَ الزعيمُ محمدٌ، والموعدُ القيامة، وعندَ قليلٍ تودُّ فكون، وعند الساعة ما تخسرون، و"لكلِّ نبأٍ مستقرٌّ .."، "فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ".

ثم التفتت الى قبر أبيها صلوات الله عليهما متمثلة بأبيات صفيّة بنت عبد المطلب رضي الله تعالى عنها:

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثةٌ ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطبُ

إنا فقدناك فقدَ الأرض وابلها ... واجتُثَّ أهلك مُذ غُيِّبتَ واغتُصِبوا

أبدت رجالٌ لنا نجوى صدورهمُ ... لما نأيت وحالت دونك الكُثُبُ

تهضَّمتنا رجالٌ واستخفَّ بنا ... دهرٌ فقد أدركوا فينا الذي طلبوا

قد كنت للخلق نورًا يُستضاءُ به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ

وكان جبريلُ بالآيات يؤنسنا ... فغاب عنَّا فكلُّ الخير محتجبُ

وَأَتَت مه فورها ذلك الأنصار، فقالت:

"مَعشَرَ البقيّة، وأعضاد المِلّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي والسِنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله أمر بحفظ المرء في ولده؟ فسرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة. أتقولون مات محمد فخطبٌ جليل، استوسع وهيه واستنهر فتقه، وفقد راتقه، فأظلمت الأرض لغيبته، وكاسف خيرة الله لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأذيلت الحرمة بموت محمد، فتلك نازلة أعلن بها كتاب الله في أفنيتكم، ممساكم ومصبحكم هتافا وصراخا، وتلوة وألحانا، ولقبله ما حلت لأبناء الله ورسله" "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ".

(إيها) بني قيلة! أهتضم تراث أبي وأنتم بمرأى ومسمع! تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وفيكم العدة والعدد، ولكم الدار والجنن وأنتم نخبة الله التي امتحن، وخيرته التي انتخب لنا أهل البيت، فنابذتم فينا العرب، وناهضتم الأمم وكافحتم البهم، لا نبرح وتبرحون، ونأمركم فنأتمر ون، حتى دارت بنا وبكم رحى الإسلام ودر حلب البلاد، وخضعت نغرة الشرك، وهدأت رعوة الهرج، وخبت نار الحرب، واستوسق نظام الدين، فأنى جرتم بعد البيان، ونكصتم بعد الإقدام عن قوم: "نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ"

أنَسِيتُمْ قَولَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أنتَ مِنِّي بِمَنزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَقولَه: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَين...؟! مَا أَسرَعَ مَا أَحْدَثْتُم! وَأَعجَلَ مَا نَكَصْتُمْ! أَلَا أَرَى وَاللهِ أَنْ (قد) أَخلَدتُم إِلَى الخَفْضِ، وَرَكَنتُمْ إِلَى الدَّعَةِ، فَعُجتُم عَنِ الدِّينِ وَمَجَجْتُمُ الَّذِي اسْتَوعَيْتُم، وَدَسَعْتُم مَا اسْتَرعَيْتُمْ، أَلَا وَ"إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُم وَمَنْ فِي الأَرضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعدِهِم لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ".

أَلَا وَقَد قُلتُ الَّذِي قُلتُ عَلَى مَعرِفَةٍ مِنِّي بِالخِذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ وَلَكِنَّهَا فَيضَةُ النَّفْسِ وَنَفثَةُ الغَيظِ، وَبَثَّةُ الصَّدرِ، وَمَعْذِرَةُ الحُجَّةِ، فَدُونَكُمُوهَا فَاحتَقِبُوهَا دَبِرَةَ الظَّهرِ، نَاقِبَةَ الخُفِّ، بَاقِيَةَ العَارِ، مَوسُومَةً بِشَنَارِ الأَبَدِ، مَوصُولَةً بِنَارِ اللهِ المُوقَدَةِ "الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ" فَبِعَيْنِ اللهِ مَا تَفْعَلُونَ "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ" وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَينَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَاعْمَلُوا إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ.

"وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ". "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.".

"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"

ثم ولّت فأتبعها رافع بن رفاعة الزرقي، فقال لها:

يَا سَيِّدَةَ النِّسَاءِ، لَوْ كَانَ أَبُو الحَسَنِ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الأَمْرِ، وَذَكَرَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَجْرِي هَذَا العَقْدُ مَا عَدَلَ لَنَا بِهِ أَحَدًا. فَقَالَتْ لَهُ رُدَّهَا:

"إِلَيْكَ عَنِّي، فَمَا جَعَلَ اللهُ لِأَحَدٍ بَعْدَ غَدِيرِ خُمٍّ مِنْ حُجَّةٍ وَلَا عُذْرٍ".

قَالَ الرَّاوِي: فَلَمْ يُرَ بَاكٍ وَلَا بَاكِيَةٌ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ، وَارْتَجَّتِ المَدِينَةُ، وَهَاجَ النَّاسُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ.

مُحَمَّد جَرِير الطَّبَرِي، دَلَائِل الإِمَامَة، ص: "١١١ - ١١٨"

تَمَّتْ بِعَوْنِ اللهِ ١٤٣٣ سَنَةً هِجْرِيَّةً

إِنْجَاطُ الحَاجِ عَلِي حُسَيْنَ قَرَيَه

شرحُ المفردات الغريبة*

١- لاثت خِمارَها: لاثَ العمامة لفَّها، والخِمار: الغطاء، من التخمير بمعنى التغطية، ومنه تخميرُ الشهادة أي كتمانُها.

٢- اشتَمَلتْ بجلبابها: الجلباب الملحفة أو الثوب الواسع كالعباءة، واشتمالُه لبسُه، أو تغطيةُ الجسد به.

٣- اللُمَة: قيل (بضمّ اللّام وفتح الميم غير مشدّدة) وهي من الثلاثة إلى التّسعة، أو بمعنى مجموعة وعدد، والحَفدة هنا بمعنى الأعوان.

٤- تطأ ذيولَها: وفي نسخة تطأ في ذيولها ، أو «أذيالها»: تعبيرٌ بلاغيّ عندما تكون الثياب طويلة، تستر القدمين.

٥- ما تخرم مشيتُها إلخ: لا تختلف مشيتُها عن مشيتِه صلّى الله عليهما وآلهما أدنى اختلاف.

٦- فنِيطت دونها ملاءة: عُلِّقت بينها وبين القوم ستارة.

٧- أجهش القوم لها بالبكاء: غمرتهم علامات التهيُّؤ للبكاء ومنها الأنين أو تعالي بعض الصَّرخات من هنا وهناك.

٨- هُنَيْئَة: برهة، فترة قصيرة. والنّشيج: امتلاء الجوف بكاءً من غير نحيب.

٩- ذِيادَةً -بالذّال المعجمة- بمعنى الدّفع والطّرد والإبعاد.

١٠- وحِياشةً لهم إلى جنّته: الحياشة سَوقٌ إلى المَأمنِ بعناية.

١١- إذ الخلائقُ في الغَيب مكنونة، وبسدِّ الأوهام مصونة، وبنهاية العدَم مقرونة: بمعنى قبل أن تُخلَق الخلائق، وعندما كانت في عالَم الغيب لا تصلُ إليها الأفكار، ولعلّ المُراد بنهاية العدَم، العدَمُ الأصل الذي هو فوقَ مجرّد العدَم، حيث إنّ العدَم الأصل أقوى من العدَم الحاصل بعد الوجود.

١٢- قبل أن يَجتبِلَه: قبل أن يخلقَه.

١٣- قبل أن يستنجبَه: قبل أن يختاره ويجعله نجيبَه، وهو تعبيرٌ آخر عن الاصطفاء.

١٤- الرَّنِق: براء مشدّدة مفتوحة ونونٍ مكسورة: الكَدِر.

١٥- ضارباً لأثباجِهم: الثّبج: ما بين الكاهل إلى الظَّهر، أو وسط الشيء، أو معظمه. والأخير يجمع ما قبله.

١٦- الكَظَم، محرَّكاً: مخرَج النّفَس من الحلْق.

١٧- مُذْقة الشّارب: المُذْقة بضمّ الميم ويجوز فتحُها: الشّربة من اللّبن الممزوج بالماء.

١٨- ونُهْزة الطّامع: النُّهزة كالفُرصة وزناً ومعنىً، والمعنى فيه في ما قبله، وما بعده: موطيء الأقدام، لشدَّة ضعفكم.

١٩- قبْسة العَجلان: ما يقبسه المُستعجل من أطراف النّار التي يضعفُ نارُها. بالمعنى المتقدّم.

٢٠- بُهَم الرّجال: الرّجال الأشدَّاء.

٢١- فَغَر: فتح فمَه. فاغرةُ المشركين: مؤامراتُهم ومكائدُهم.

٢٢- قَذَف أخاه في لهَواتِها: لهَوات جمع لَهاة، وهي .. اللَّحمة الحمراء في أصل الحَنَك، والمعنى في قلب الفاغرة المستجدّة.

٢٣- صماخ: بوزن سِلاح: ثُقب الأُذن، الذي يُفضي إلى الرأس، وقيل هو الأُذن نفسها.

٢٤-أخمصُ القَدَم: باطنُها الذي لا يلامس الأرض.

٢٥- المَكدود: المُجْهَد.

٢٦- البَلهنيَّة: السّعة، رَغَدُ العيش.

٢٧- الحَسيكة: الحِقد والضّغينة.

٢٨- و سَمَل (وانسمل) جِلبابُ الدِّين: أصبح ثوبُ الدِّين بالياً.

٢٩- ونطقَ كاظمُ الغاوين: نطقَ من أهل الغِواية والضّلال مَن كان يكتُم ويكظِم (غيظَه، وحقدَه).

٣٠- ونبغَ خاملُ الأَقلّين: الذي كان يأتي في آخر قافلة الشّرذمة القليلة أيّام الرّسول المصطفى، ظَهرَ اليوم و«نبغَ» فأصبح يُعَدُّ في الطّليعة.

٣١- يَخْطُر: يتبختر.

٣٢- عَرَصاتكم: ساحاتكم.

٣٣- مَغْرَزِه: المنزل الذي يبيتُ فيه، بمعنى أطلعَ الشيطانُ رأسَه من وكره.

٣٤-خَطْمُ الإبل: كيُّها بالنار لثَقْب الأنف، والمراد به وبما بعده: أخطأتم الهدفَ الصّائب.

٣٥- بِداراً: أي مبادرةً وإسراعاً. وفي هذه الفقرة ردٌّ على من يدّعي أنّ السّقيفة كانت لضرورات درءِ الفتنة.

٣٦- الكَلْم: الجُرح. ورحيب: واسع.

٣٧- لمّا يَنْدَمِل: لم يلتئم بعد.

٣٨- زواجره: نواهيه. ولامحة: بمعنى ظاهرة.

٣٩- ثمّ لم تلبثوا إلّا رَيْثَ أن تسكنَ نفرَتُها (نُفورُها)، ويسلس قيادُها: لم تصبروا بعد رسول الله عن الخروج عليه إلّا وقتاً يسيراً كالوقت الذي يستغرقُه سكونُ نفرة النّاقة -أو الفرس- أو يستغرقُه تمكينُها لسائقِها من قيادها وهو الزّمام. يسلس قيادُها: يسهل تحريك زمامها، والمراد أنّكم أسرَعتُم إلى ظلم أهل البيت عليهم السلام.

٤٠- تُورون وَقدتَها: تُشعلون توقُّدَها.

٤١- تُسِرُّون حسواً في ارتغاء: يُقال ذلك لمن يتظاهر بشيء وهو يفعل غيرَه، وأصلُه التظاهر بالإرتغاء أي تناول الرّغوة عن وجه الحليب في حين أنّ الواقع الحسو من الحليب نفسه، أي شرب ما تيسّر خفيةً وبسرعة.

٤٢- وتَمشون لأهله في الخَمَر والضَّرَّاء: الخمرة أو الخمر: السِّتر، والضّرّاء السِّتر الشّديد، فقد يكمن الصيّاد في مكانٍ شبه مكشوف في أرضٍ سهلة خلفَ صخرة، هذا هو الخَمَر أو الخُمْرة أو الخَمراء، وقد يكمن في مُلتَفَّ الشّجر من قلب الغابة، هذا هو الضَّرَّاء.

٤٣- المُدية (بضم الميم): الشَّفرة، والجمع مُدى.

٤٤- احتقبوها: أي تحمَّلوها. دبرة الظَّهر: مُثقِلة الظّهر مُتعِبتَه.

٤٥- ونقبة الخفّ: رقّة خفّ الناقة الذي يُعيق حركتها. والمعنى هو ما يأتي في الفقرات التالية، باقية العار. أي تحمّلوا وِزرَ فعلتِكم القبيحة الشّوهاء، المكشوفة.

**

* تمّ شرح المفردات نقلاً عن كتاب (في محراب فاطمة عليها السلام)، للشيخ حسين كوراني، وتجد في الكتاب مصادر الخطبة، وتوضيح الفروق بين هذه المصادر في بعض الفقرات، وقد جاء شرح المفردات المتقدّم أعلاه شاملاً لبعض الفقرات التي لم ترِد في النصّ المعتَمد في هذا الملحق.